الكتاب الثانى: "جدلية الجنون والإبداع" (1) (الحلقة السابعة)

نشرة "الإنسان 2019/08/24
السنة الثانية عشرة – العدد: 4375

بروفيسور يحيى الرخاوي – الطب النفسي، مصر
yehiatrakhawy@hotmail.com

.....

.....

كفاءة الوجود البشرى فى مرونته

الفرض الأساسى (تبادل حالات الوجود الثلاث):

تبين لنا فيما سبق أن لكل من الإبداع والجنون حركية نشطة فى مرحلة بذاتها باعتبار أنهما معا يمثلان محاولة هز سكون ما هو "راتب عادى مستقر"، ثم بعد ذلك يختلف المسار:

* فإما حركية تحللية بديلة وناكصة، فمتفسخة ومتناثرة إلى التدهور ما لم يلحقها تشكيل ضام مناسب: فهو الجنون.

* وإما حركية جدلية ضامة متضفرة، حتى إعادة التشكيل على مستوى أعلى: فهو الإبداع.

انطلاقا من هذا الموقع يمكننا أن نضع الفرض الأساسى فى هذه الدراسة على الوجه التالى:

تمهيد:

بإعادة النظر فى موقفنا مما يسمي"الحياة العادية"، يبدو أنه ليس صحيحا أن يكون هذا التعبير مصطلح "الحياة العادية" (عند العامة والأطباء على السواء) هو المرادف البديهى لما هو "صحة" (نفسية !!). ذلك لأن مايسمى بالحياة العادية ليس إلا إحدى "صور/حالات" الوجود المتعددة. ومهما كانت هذه "الحالة العادية" هى الغالبة إحصائيا (حيث يتصف بها معظم الناس) والسائدة زمنيا (لمعظم الوقت)، فهى ليست كل الوجود حتى تحتكر ما يطلق عليه الحياة العادية، بمعنى الصحة المرجَّحة أحيانا. ذلك لأن مايسمى"الحالة العادية" لو سادت –هكذا– طوال الوقت لأصبحت عاملا معوِّقا لمسيرة الحياة، فالتطور، حيث أنها عاجزة عن احتواء حركية الظاهرة البشرية فى جدليتها المتصاعدة.

إن التحدى الملقى علينا – والذى نحاول تحمل مسئوليته فى هذه الدراسة– هو مواجهة هذه الشائعة السكونية بفهم أعمق لطبيعة المسيرة البشرية، حتى لانخدع فنعتقد أن الصحة النفسية المناسبة ليست إلا المضاعفة المتراكمة لهذه العادية العددية الكمية السكونية.

معالم الفرض:

إن ما يطلق عليه تعبير"الحياة العادية" Normal Life، ليس سوى "حالة العادية" State of Normality، على أساس أنها "حالة" من بين حالات أخرى لازمة، بالتبادل والتفاعل، لاستمرارية الحياة البشرية فى كفاءتها القصوى ونمائها المتصل.

فما هى تلك الحالات الأخرى؟

إنها ليست سوى ماقدمنا منذ قليل، أى "حالة الإبداع" "وحالة الجنون"، على أساس أنهما تمثلان ألوان النشاط المتبادلة (والمتداخلة والمتفاعلة) مع حالة النشاط العادى الغالبة.

إما حركية تحللية بديلة وناكصة، فمتفسخة ومتناثرة إلى التدهور ما لم يلحقها تشكيل ضام مناسب: فهو الجنون

إما حركية جدلية ضامة متضفرة، حتى إعادة التشكيل على مستوى أعلى: فهو الإبداع

يبدو أنه ليس صحيحا أن يكون هذا التعبير مصطلح "الحياة العادية" هو المرادف البديهى لما هو "صحة" (نفسية !!).

لأن مايسمى"الحالة العادية" لو سادت –هكذا– طوال الوقت لأصبحت عاملا معوِّقا لمسيرة الحياة، فالتطور، حيث أنها عاجزة عن احتواء حركية الظاهرة البشرية فى جدليتها المتصاعدة

وإذا كنا نقبل أن تتبادل حالة العادية مع حالة الإبداع، فكيف نتصور ضرورة التبادل مع حالة الجنون؟

نرجع إلى ماسبق تحديده من تقسيم مفهوم الجنون إلى "عملية" و"ناتج سلبي"، ذلك أن حالة الجنون التى نعنيها الآن إنما تختص بالعملية الحركية ذات التوجه المحتمل المتفسخ دون مفهوم الجنون الناتج السلبى المستتب، إن الخلط بين مفهومئ الجنون هذين هو السبب فى إشاعة الرعب والإرعاب الذى يلاحقنا ويحول دون إبداعنا حيث نخاف من أى "حركة" حقيقية غامضة باعتبارها مؤدية إلى هذه النهاية الساكنة المتفسخة فالمتدهورة دون سواها. إن هذا الموقف هو الذى يعطى مبررا تلقائيا لاستمرار غلبة "العادية" طول الوقت (طلبا للسلامة). وعلى ذلك فإن الحالة التى نسميها هنا الجنون والتى نصر على أنها إحدى الحالات اللازمة لكفاءة الوجود البشرى، هى مرحلة زمنية (مهما قصر زمنها) قد تتحور أو تنتهى، وقد تسكن وتتراجع لتعلن حالة العادية وقد تتمادى للتفسخ فالناتج السلبى فقط فهو الجنون بمعنى المرض، وقد تتوجه نفس العملية ضامة فى إعادة تشكيل إلى حالة فائقة من الجدل والتوليف فهو الإبداع.

إن فهمنا الأعمق لكل من هذه الحالات واحتمالات تبادلها هو الوسيلة لاستعادة الفهم السليم لحركية الوجود، ومن ثم لتأمين استمرارية جدلية النمو والابداع. وبتعبير آخر: إن كفاءة الوجود البشرى، إنما تتحق بمرونة الحركة وسلاستها، والتفاعل بين الحالات الثلاث: حالة العادية، وحالة الجنون، وحالة الإبداع.

لقد قصدت أن أستعمل تعبير "كفاءة الوجود البشرى" ليحل محل تعبير "الصحة النفسية" حتى يتضح أن المفهوم السكونى الشائع عما هو صحة تحت زعم تقديس "العادية" فحسب، لا يتفق مع ما يعد به الوجود البشرى ويستطيعه فى حركيته النامية الغائية.

سبق لى أن رفضت مفهوم "العادية" مرادفا للصحة النفسية ، حتى أنى انتهيت إلى أن هذه العادية إنما تمثل أحد مستويات الصحة النفسية (وليس كلها)، بل وصفتها حينذاك بأنها: "أدني" مستويات الصحة النفسية. لكنى وضعت آنذاك حلا "توازنيا" للخروج من هذا المأزق، حيث رأيت أن الصحة النفسية هى "توازن القوى التى تواجه إمكانات فرد معين فى مجتمع ما، فى وقت بذاته، لتحقق لهذا الفرد احتياجاته المرتبطة بدرجة تطوره، التى يتم بها التوافق الداخلى، والتلاؤم مع من حوله...".

ثم تطورت رؤيتى للصحة النفسية – كما ذكرت – من تناسب القدرات (الدفاعية، والبصيرية والابداعية) فى مختلف مراحل النمو، إلى انتظام الإيقاع الحيوى الذى يسمح بتبادل المستويات وجدلها وذلك "... بافتراض أن الإبداع هو حتم حيوى (بيولوجي) حياتى (وجودى)، وأن مظاهره فى الفن والأدب وتشكيل النغم والخط واللون.. إلخ.، ليست إلا بعض صوره الظاهرة والباقية... لكنه– من ناحية أخرى– هو فعل يومى لكل الناس كما سبق أن أوضحنا.

تجيء هذه الدراسة الحالية لتوضح أبعاد هذه النقلة من التوازن الكمى، إلى الحركة الإيقاعية اليوماوية (السركادية)، إلى التناوب المحتمل المرتبط بمرونة الحركة وسلاستها والتفاعل بين حالات الوجود، ليس فقط تناوبا، وإنما جدلا معادا وصولا إلى توليف أعلى.

كذلك: لم يصح عندى بعد التتبع الطويل كما أشرت سالفا، أن أرضى بتصنيف البشر إلى أعلى وأدنى بحسب المستوى الذى يحققون به التوازن، أعنى مستوى الخالقى (الابداعى)، والعقلانى (المعرفى)، والدفاعى (العادى)، لا يجوز تصنيفهم بصفة عامة أو دائمة إلى مبدع، وعادى، ومجنون.

هذه النقلة فى تطور فكرة لها دلالتها التطورية، وربما يكون لها دلالتها الإبداعية والوقائية والتربوية،

تحديد الفرض:

"لا يوجد إنسان هو مبدع بالطبيعة والاستعداد والموهبة، والآخر ليس مبدعا ولا يمكن أن يكون كذلك، الاختلافات واردة، والفرص مختلفة، لكن الطبيعة البشرية بمسيرتها الحيوية تسمح بالتبادل الحتمى لكل فرد دون استثناء بين حالات الوجود التى أشرنا إليها حالا: حالة العادية، وحالة الجنون، وحالة الإبداع. الإشكال إذن فى التوقف عن هذا التبادل قهرا أو خوفا أو تشويها، بما يترتب عليه دوام إحدى هذه الحالات على حساب الأخريتين.

إن التحدى الملقى علينا هو مواجهة هذه الشائعة السكونية بفهم أعمق لطبيعة المسيرة البشرية

حتى لانخدع فنعتقد أن الصحة النفسية المناسبة ليست إلا المضاعفة المتراكمة لهذه العادية العددية الكمية السكونية

إن ما يطلق عليه تعبير "الحياة العادية" Normal Life، ليس سوى "حالة العادية" State of Normality، على أساس أنها "حالة" من بين حالات أخرى لازمة، بالتبادل والتفاعل، لاستمرارية الحياة البشرية فى كفاءتها القصوى ونمائها المتصل

إن الحالة التى نسميها هنا الجنون والتى نصر على أنها إحدى الحالات اللازمة لكفاءة الوجود البشرى، هى مرحلة زمنية (مهما قصر زمنها) قد تتحور أو تنتهى، وقد تسكن وتتراجع

إن كفاءة الوجود البشرى، إنما تتحق بمرونة الحركة وسلاستها، والتفاعل بين الحالات الثلاث: حالة العادية، وحالة الجنون، وحالة الإبداع.

فلو غلبت حالة العادية طوال الوقت، لتجمد الوجود، فيما يسمى "فرط العادية" الذى قد يشمل فى تضخمه الكمى بعض ما يعرف بـ "اضطرابات الشخصية"

ولو غلبت حالة الجنون طوال الوقت، لتمادى التناثر فتحلل الوجود إلى التدهور المتمادى فالتحلل المتفسخ السلبى (الإزمان والموت النفسى).

ولو غلبت حالة الإبداع طوال الوقت (وهو فرض مستحيل)، لتقلص الوجود باسطا ما احتوى فى تشنج ممتد حتى قد ينقلب الإبداع إلى عكسه مفتقرا إلى تجديد مادته الأولية اللازمة المتغيرة لحركية الجدل فى نبضة إبداع تال.

هذه النقلة من "تصنيف البشر" إلى "تصنيف الأحوال" هى اعتراف ضمنى بحتمية التطور (الإبداع) عند كل الناس إذْ تمثل انطلاقة نحو قبول الطبيعة البشرية بما يسمح للعادى أن يبدع، ويُطَمْئِنُ المبدع حتى لو خاف مخاطرة الجنون (اللاعودة = سكة اللى يروح ما يرجعشى) ، كما أنها بمثابة تنبيه إلى ضرورة احترام الذى جُنّ باعتبار أنه احتمال قائم عند أى واحد منا، وأيضا باعتبار أن ثمة فرصة أمام الذى تورط فى هذه المحنة: ليس فقط للعودة إلى العادية والتبادل الصحى، وإنما لاحتمال الإبداع ما دام أنه تحرك بما يشير إلى احتمال أنه أَجْهزُ للتفكيك من المتصلب العادى، مع اتخاذ كل الحذر لتعرضه أكثر من غيره للحل السلبى المتمادى (أنظر الملحق الأول).

تحذير

نوضح هنا– ثانية وكثيرا– أن اعترافنا بـ "حالة الجنون" على أنها مرحلة ضمن حركية النمو، لاينبغى أن يعطيها أية شرعية للتمادى، حتى تصير إلى ما يسمى "الجنون"، حالة الجنون غير الجنون وإن كانت المؤدية إليه متى طالت، وعادت، وظهرت فى الوعى العادى، كذلك فأن دفاعنا عن حق التواجد والتبادل والتفاعل لهذه الحالة هو دفاع عن حالة الجنون (حالة كونها حركة)، وليس عن ظاهرة الجنون (حالة كونها إقامة)، أى أننا نقبل الجنون–وندافع عنه– بما هو حالة مرحلية نشطة، واحتمالٌ وارد، وبالتالى نسمح بحركتها فى إطار حركية متكاملة (لكن ليس أبدا بوصفها ظاهرة مستقرة). إنها دعوة أن نقبل حالة الجنون وليس الجنون، باعتبارها حالة نحترم بدايتها دون مسارها (إلى التدهور والنكوص المستتب). هذا الاضطرار الحذر (الجنون فى رحاب العقل) هو المخرج المحتمل لمواجهة غلبة رفضنا للجنون كليةً وابتداءً ، مما يترتب عليه رفض للحركية ضمنا، ومن ثم تراجع احتمالات الإبداع الذى يتفق معه (مع الجنون) فى البدايات.

فى هذه المرحلة من النقاش ينبغى تقديم تمييز واضح بين الحالات الثلاث تمييزا يساعدنا على عدم الخلط، خصوصا بين الجنون والإبداع، ونحن نرجو أن يكون هذا التمييز (المجدول فى: الملحق الأول) مدخلا للانطلاق إلى النظر فى نوعية العلاقات المطروحة، وبخاصة بين الجنون والإبداع، كما يجدر بنا الانتباه مرة أخرى إلى صفة "حالة" بالمقارنة بتعبير "مستوى التوازن" فى المحاولة الباكرة عن مستويات الصحة النفسية، حيث "الحالة" هنا هى حركية أساسا، أما "المستوى التوازني" فهو قد يبدو تسوية ساكنة بشكلٍ ما. إن التأكيد على ما هو حالة مرحلية وحركية بالضرورة هو المفتاح الضرورى لفهم المسيرة البشرية بمختلف أوجه مثولها المتناوب المتفاعل الإيقاعى، وجدليتها الخلاقة باستمرار.

أوجه الشبه بين الجنون والإبداع، تتجلى: من حيث التعدد، والتفكك، والشحن والنشاط، وفى الوقت نفسه تتجلى أوجه التضاد بينهما مجتمعين (الجنون/ الإبداع) وبين حالة العادية. فكأنهما معا هما ضد ماهو عادى. وفى الوقت نفسه فإن وجه التضاد بين الجنون والإبداع ليس خافيا، ففى حين نجد فى الجنون–فى ناحية– تأكيداً لمعالم التنافر والتناثر والعجز والدوائرية وقصر النفس، نلاحظ فى ناحية الإبداع ملامح الضم والمواكبة والتخلق والمرونة والغائية الصاعدة والنهايات المفتوحة.

على أن مايهمنا بصفة خاصة فى هذا الصدد ليس هو مجرد تمييز الشبه والاختلاف، بقدر مانود أن نؤكد أن الحالات الثلاث هى صور الوجود المتبادلة عند كل الناس، وهذا مايجعلنا نتقدم خطوة لازمة فى تطوير الفرض فى محاولة تحديد مجالات ظهور كل "حالة" عند الشخص العادى (أساسا)، ثم احتمالات

لقد قصدت أن أستعمل تعبير "كفاءة الوجود البشرى" ليحل محل تعبير "الصحة النفسية"

أن المفهوم السكونى الشائع عما هو صحة تحت زعم تقديس "العادية" فحسب، لا يتفق مع ما يعد به الوجود البشرى ويستطيعه فى حركيته النامية الغائية

سبق لى أن رفضت مفهوم "العادية" مرادفا للصحة النفسية ، حتى أنى انتهيت إلى أن هذه العادية إنما تمثل أحد مستويات الصحة النفسية (وليس كلها)، بل وصفتها حينذاك بأنها: "أدنى" مستويات الصحة النفسية

أن الصحة النفسية هى "توازن القوى التى تواجه إمكانات فرد معين فى مجتمع ما، فى وقت بذاته، لتحقق لهذا الفرد احتياجاته المرتبطة بدرجة تطوره، التى يتم بها التوافق الداخلى، والتلاؤم مع من حوله...".

تجيء هذه الدراسة الحالية لتوضع أبعاد هذه النقلة من التوازن الكمى، إلى الحركة الإيقاعية اليوماوية

تمادى أى منها.

فحالة الجنون هى المقابلة – فى المراحل الأولى – للنشاط التفكيكى للحلم، كما تظهر نادرا فى بعض حالات النكوص المؤقت، تلقائيا، أو بفعل الكيمياء (المهلوسات على الخصوص)، وأخيرا فهى تظهر لمدة أطول وبشكل أخطر فى الجنون كما هو معروف فى شكله المرضى. وقد تتمادى وتستتب حتى لاتعود تصلح لأن تعد مرحلة (عابرة) إلى ماهو إبداع، اللهم إلا فى نوع نادر من الجنون الدورى الذى قد يعقب نوبته – نادرا– تغير نوعى فى الشخصية، إلى ماهو مجاوزة تطورية لما كان قبل نوبة الجنون، وكذلك فى بعض حالات الصرْع عند بعض المبدعين مثل ديستويفسكى ، حيث قد يخرج المبدع من الصرعة أكثر مرونة، وامتدادا للذات، ومن ثم أرحب إبداعا (2).

أما حالة الإبداع فهى التى تقابل الأطوار الولافية التعزيزية لنشاط الحلم بعد التفكيك المبدئى (3)، كما تظهر فى تأليف الحلم قبيل اليقظة أو حتى بعدها (4)، ولكنها ليست هى ما يقابل حكى الحلم مسلسلاً مفصلا، أو مزيفا بتلفيق بعض الذاكرة.

إن "حالة الإبداع"، على مسار النمو، هى الحالة التى تسمح لأزمات النمو الفردى فى دورات النمو أن تُختتم بنقلة إلى دورة أرقى، وهكذا. وهذا عكس ما شاع عن اقتصار ما هو إبداع – عند الكافة بما فيهم كافة المختصين والمبدعين – على الناتج الذى يعلن عن نفسه بشكل صريح ومباشر فيما يسمى "الناتج الإبداعي" كما هو معروف بأشكاله العلمية والأدبية والفنية. إن إبداع الذات فى اضطراد نافع، فى تواصل متناغم مع الكون، فى وعى فائق (خبرات التصوف الحقيقية) لا يعد إبداعا معترف به للأسف ، مما يختزل مفهوم الإبداع وعملياته إلى ناتجه وليس عملياته ذاتها.

أما حالة العادية فهى الغالبة فى معظم الوقت عند معظم الناس فى حالة الصحو، ولا ينبغى التقليل من أهميتها وضرورتها، كما لا ينبغى أن تترادف –احتكارا– فى الوقت نفسه مع الصحة النفسية هكذا ببساطة. إن حالة العادية هى التى تسمح بالقيام بـالعمل الراتب، والتحصيل المنتظم، والتبادل الهادئ، وتأكيد الثابت، وتثبيت المؤكد، وإتقان الخطوة، وتهدئة الحركة، والالتزام بالأغلب...إلخ. وكل ذلك حيوى ولازم ومحورى فى ذاته وفى علاقته بمتطلبات الحالات الأخرى.

لكى يطرد النمو البشرى لابد من وعاء، ومحتوى، ودرجة من التنظيم المستقر لفترة محددة (حالة العادية)، ثم لابد من تحريك وتفاعل، يحدث عشوائيا فى البداية (حالة الجنون)، ثم لابد من حركية وجدلية وتوليف تستوعب هذه البداية المهددة (حالة الإبداع) .....، وهكذا، وباستمرار.

مسار التبادل ودوراته:

إن هذا المدخل إلى فهم الطبيعة البشرية يؤكد على حركية البيولوجيا فى طفراتها الدقيقة والجسيمة على حد سواء، كما أن تجلياته السلوكية، والرمزية تظهر فى صور الإبداع والجنون والعادية بالتبادل، وإن كانت الغلبة الظاهرة لأسباب لا تخفى، هى غلبة لصالح "حالة العادية" أكثر، لوقت أطول، وقد تستغرق – ظاهرا– العمر كله، على حساب حق الجنون، أو ضرورة الإبداع.

تفصيل بعد إجمال

1 – إن الإنسان فى حركته النوابية إنما يعيد تنظيم ذاته تركيبا (وهى المتمثلة فى معظم الوقت فى نمط سلوكه ظاهريا) بطريقة دورية راتبة. يظهر ذلك بشكل واضح فى دورات النمو الفردى (كمثال منظور إريك إريكسون) (5) كما يتحقق– بما لا يظهر تحديدا ودائما فى السلوك اليومي– فى الدورة الليلنهارية من خلال تبادل اليقظة/ النوم / الحلم/ (6)، وتكون محصلته الحيوية هى أساس الإبداع العادى متمثلا فى مرونة الوجود، وكفاءة الوظائف، ومواكبة الطبيعة، (التى من بعض مظاهرها هارمونية الإيمان)، كما أنها أساس تطور النوع على المدى الأبعد.

2– إنه لو تم هذا (الإبداع الذاتى فى دورات النمو) وذلك (الإبداع اليومى فى الدورات الليلنهارية المواكبة لنوابية حالات الوعى– الفصل الأول) بطريقة مضطردة، ومناسبة، وكافية، فإن الإنسان قد لايضطر – ابتداء–إلى "إنتاج" إبداع خارج عن ذاته، يسجله برموز وتشكيلات منفصلة عن مسيرته

(السركادية)، إلى التناوب المحتمل المرتبط بمرونة الحركة وسلاستها والتفاعل بين حالات الوجود

لا يوجد إنسان هو مبدع بالطبيعة والاستعداد والموهبة، والآخر ليس مبدعا ولا يمكن أن يكون كذلك، الاختلافات واردة، والفرص مختلفة

لو غلبت حالة العادية طوال الوقت، لتجمد الوجود، فيما يسمى "فرط العادية" الذى قد يشمل فى تضخمه الكمى بعض ما يعرف بـ "اضطرابات الشخصية"

أن اعترافنا بـ "حالة الجنون" على أنها مرحلة ضمن حركية النمو، لاينبغى أن يعطيها أية شرعية للتمادى، حتى تصير إلى ما يسمى "الجنون

حالة الجنون غير الجنون وإن كانت المؤدية إليه متى طالت، وعادت، وظهرت فى الوعى العادى

أن دفاعنا عن حق التواجد والتبادل والتفاعل لهذه الحالة هو دفاع عن حالة الجنون (حالة كونها حركة)، وليس

الحيوية، كما أنه لو تحقق هذا الفرض –حتى نظريا– فقد لا يضطر أحد إلى مغامرة التناثر الخطر، إذا ماتفكك عشوائيا فى حالة الصحو، أى أنه لن يضطر إلى السير فى طريق الإبداع باضطراد خطىّ، وبالتالى فإنه لن ينزلق إلى احتمال الجنون أصلا. كل هذه احتمالات مستحيلة تؤكد ضرورة التناوب ومرونته.

بألفاظ أخرى (والإعادة واجبة): إنه على فرض أن الإنسان ينمو باطراد مرن ومناسب (بالتبادل التلقائى الآمِن السالف الذكر) كما أخبرنا تاريخه الحيوى عبر ملايين السنين عبر تطور الأحياء، دون تدخل بوعى يقظ أو إرادة محددة، فإن مسيرته الحالية يمكن أن تتواصل بلا حاجة إلى إبداع وتْبىَ مشكَّل خارج عن كيانه، وبلا خوف من جنون تفسخى يهدد بالانقراض.

3– المسيرة البشرية – فى واقع الأمر – لاتسير بهذه السلامة السهلة، سواء كان ذلك نتيجة لطبيعة القوانين التطورية الناقصة، أم كان نتيجة لخلخلة استخدام الوعى والإرادة على نحو ترتب عليه تدخل أخل بالتوازن ربما نتيجة للاحتمالات التالية:

(أ) رجحان غلبة (مستوى) على غيره (أنظر بداية الدراسة).

(ب) تراجع الإفادة من نتائج تنشيط الحلم حتى يتضاءل دوره الابداعى بتزييفه بالحكى المصنوع أو بالتفسير المتعسف (انظر الفصل الأول)، أو بإغفاله كلية، ومحاولات محو آثار حركته أولا بأول، وأيضا:

(جـ) انفصال الإنسان عن الاتصال المباشر بدورات الطبيعة،

(د) مغالاة البشر فى قيمة ناتج الإبداع على حساب الإبداع ذاته،

فإذا غلبت هذه الاحتمالات على مسيرة البشر فى مرحلة معينة فيمكن أن نتوقع أن تتواصل حركية المسيرة البشرية بخطى غير متوازنة، فى ظروف غير ملائمة، معظم الوقت، لكن الإنسان بوعيه الفائق يسارع بإنتاج إبداع خارج ذاته يستعيد به التوازن من ناحية، ويرسم لنفسه ولأجيال بعده بعض خطوط المسار الأرقى من ناحية أخرى (أنظر بعد).

4– تواصل الدورات الليلنهارية (الصحو/ النوم/ الحلم) عملها المنتظم وهى تحاول الإقلال من تدخلات الوعى والإرادة، كما تحاول أن تسمح للتفكك (الجنون) أن يتم فى مستوى سرى بعيدا عن الإرعاب والإخماد معا (داخل ستر النوم). ويبدو أنها نجحت نسبيا، فقللت من عمومية الحاجة إلى مغامرة الإبداع الخاص وإلحاحها، كما قللت نسبيا من ظهور الجنون الصريح عند أغلب الناس.

5– فى الحالات الأقل، التى لاتنجح فيها هذه الدورات الليلنهارية فى أن تستوعب ناتج الإيقاع الحيوى فى الإبداع الحيوى البالغ المرونة والضآلة، كما لاتستطيع حالة "فرط العادية" (7) أن تواصل الإبطال والمحو فى أثناء الصحو أولا بأول– فى هذه الحالات، بالإضافة إلى متغيرات أخرى، قد يضطر الفرد إلى التعرض لنوبة بسط جسيمة (8) وذلك فى أثناء وعى الصحو (أو حتى فى أثناء وعى النوم مع امتداده فى حالة الصحو) على نحو ينتج عنه تفكك مفرط يهدد الكيان القائم. ويظهر فى شكل بدايات الجنون المحتملة.

6– بعد هذه الهجمة التخلخلية، قد يعاد التنظيم إلى سابق عهده، مع أن ذلك يكاد يكون محالا إلا بالنسبة لظاهر السلوك. ذلك لأن جرعة التخلخل إذا ما وصلت إلى هذه الحدة، فإنها تختلف عن جرعة التعتعة اليومية، التى يمكن استيعابها من خلال حركية نشاط الحلم النوابية. إن هذه الجرعة التنشيطية المفرطة الحدة، تختلف إلى درجة تتطلب استيعابا أشمل فى تفاعل أعمق، حتى يمكن احتواؤها.

7– الاحتمال الآخر (وهو مع الاحتمال الذى يليه موضوع دراستنا) هو أن يتمادى التخلخل والتباعد، ويتصاعد التنشيط، والفوران، حتى تسود الوسائل البدائية، وتظهر المستويات الأولية، بما فى ذلك غلبة الصور، والإدغام، وعجز اللغة، ومظاهر النكوص، وهو مايسمى الجنون.

8– الاحتمال الإيجابى، هو أن يستوعب الفرد هذا التخلخل الضاغط والتنشيط الملح، دون الخوف منه، ودون الإسراع إلى كبته، ودون التوقف عنده، أو الاستسلام لتماديه (الجنون)، إذ يتقبله ويحيطه، ويترجم مانشط فيه من بدائيات إلى لغة حديثة مرنة وقادرة على استيعابه والتجدد من خلاله فى آن واحد.

عن ظاهرة الجنون (حالة كونها إقامة)،

أننا نقبل الجنون–وندافع عنه– بما هو حالة مرحلية نشطة، واحتمالٌ وارد، وبالتالى نسمع بحركتها فى إطار حركية متكاملة

دعوة أن نقبل حالة الجنون وليس الجنون، باعتبارها حالة نحترم بدايتها دون مسارها (إلى التدهور والنكوص المستتب)

أوجه الشبه بين الجنون والإبداع، تتجلى: من حيث التعدد، والتفكك، والشحن والنشاط، وفى الوقت نفسه تتجلى أوجه التضاد بينهما مجتمعين (الجنون/ الإبداع) وبين حالة العادية

حالة الجنون هى المقابلة – فى المراحل الأولى – للنشاط التفكيكى للحلم، كما تظهر نادرا فى بعض حالات النكوص المؤقت، تلقائيا، أو بفعل الكيمياء

هى تظهر لمدة أطول وبشكل أخطر فى الجنون كما هو معروف فى شكله المرضى

وهو يقوم بذلك:

(أ) بحيث تتخلق الذات منه وتتمدد به، بعد أزمة إعادة الولادة، وهذا هو النمو.

(ب) أو هو يخرج فى شكل ناتج أرقى، مشكّل فى صورة رمزية خارجية مسجلة، وهذا هو ما يسمى عادة: الإبداع.

9 – تنوع العلاقات بين الجنون والإبداع، وأنواع الإبداع المقابل:

لاحظنا فيما تقدم أن العلاقة بين حالتَىْ الجنون والإبداع تشير إلى بداية مشتركة، وموقف متحدٍ ومضاد – فى نفس الوقت– لغلبة "حالة العادية" ولاحظنا فى الوقت نفسه أن ثم مسارا مختلفا وناتجا متنوعا لكل منهما، مع احتمالات تبادل، أو تضاد، بما يحمل كل ذلك من آثار مختلفة على مسيرة النمو، التى يعد أحد مظاهرها "الإبداع"، وبعض مضاعفاتها "الجنون". وكل هذا يحتاج إلى إيضاح.

ينبغى أن يعاد النظر فى الزعم بأن ثمَّ شبها بين الإبداع والجنون من خلال تلاحق المراحل التى عرضناها فى التسلسل السابق (فقرة –7–)، ويستحسن أن نكرر أن الالتباس حول الشبه بينهما يأتى أساسا:

1– من أن كلا منهما هو نقيض حالة العادية.

2– وأن انبعاثات بداية كل منهما هى واحدة من حيث تنشيط المعرفة الأخرى، وإحياء وحدات لغة بدائية سبق كبتها أو إهمالها، أو تأجيل التعبير بها أو حفظها، ناهيك عن تشويهها، ودغمها..إلخ.

إن "حالة الإبداع"، على مسار النمو، هى الحالة التى تسمح لأزمات النمو الفردى فى دورات النمو أن تُختتم بنقلة إلى دورة أرقى، وهكذا

إن إبداع الذات فى اضطراد نافع، فى تواصل متناغم مع الكون، فى وعى فائق (خبرات التصوف الحقيقية) لا يعد إبداعا معترف به للأسف

لكى يطرد النمو البشرى لابد من وعاء، ومحتوى، ودرجة من التنظيم المستقر لفترة محددة (حالة العادية)، ثم لابد من تحريك وتفاعل

إن الإنسان فى حركته النوابية إنما يعيد تنظيم ذاته تركيبا (وهى المتمثلة فى معظم الوقت فى نمط سلوكه ظاهريا) بطريقة دورية راتبة

تواصل الدورات الليلنهارية (الصحو/ النوم/ الحلم) عملها المنتظم وهى تحاول الإقلال من تدخلات الوعى والإرادة، كما تحاول أن تسمح للتفكك (الجنون) أن يتم فى مستوى سرى بعيدا عن الإرغام والإخماد معا (داخل ستر النوم)

هوامش

[1] – هذا هو الكتاب الثانى باسم "جدلية الجنون والإبداع" نشرت صورته الأولى فى مجلة فصول– المجلد السادس – العدد الرابع 1986 ص(58/30) وقد تم تحديثها دون مساس بجوهرها، وهو الفصل الثانى من كتاب "حركية الوجود وتجليات الإبداع" الصادر من المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة، والكتاب يوجد فى طبعته الأولى 2007 بمكتبة الأنجلو المصرية، وفى منفذ مستشفى دار المقطم للصحة النفسية شارع 10، وفى مؤسسة الرخاوى للتدريب والبحوث: 24 شارع 18 من شارع 9 مدينة المقطم، كما يوجد أيضا حاليا بموقع المؤلف، وهذا هو الرابط www.rakhawy.net ، وهذه هى الطبعة الثانية بعد أن قُسم إلى ثلاث كتب أضيف إليها ما جدَّ للكاتب بين الطبعتين، وهذا الكتاب هو الثانى.

[2] – أعترف أنى لم أستطع أن اقرأ ديستويفسكى، لا فى رواياته، ولا فى خطاباته، ولا فى قصصه القصيرة، دون أن أستحضر إيجابيات صرْعه، وأفرح بها، كما كان هو يفرح بمنذراتها ويضفها وصف من يدخل الجنة قبل الصرعة مباشرة، واعتبرت أن هذه الحركية قد أتاحت له درجة من الإفاقة المتكررة بعد الغيبوبة المفاجئة، إفاقة حافظت على حركية نصوصه طول الوقت (وليس كل صرع كذلك، بل العكس هو الأرجح)، وبالتالى استطعت أن أحتوى كل هذا الفيض من النقلات العنيفة الرائعة رغم إطنابه الممل، وقد أصررت على الاقتراب من أعماله من هذا المنظور لأؤكد به تلك الوصلة بين البيولوجى وبين الإبداع، ولأدعم الفرض الذى يجعل للصرع دورا إيجابيا فى بعض الحالات، بل دورا إبداعيا وثوريا تماما، وقد تأكدت من خطورة إنكار هذا البعد أو الجهل به حين قرأت تفسير فرويد للإخوة كارامازوف، وقد أخطأ فرويد الجادة حين اعتبر هذه الصرعات نوعا من الهستيريا، وقد أرجعت ذلك إلى ابتعاد فرويد عن نبض البيولوجيا متضفرة مع نبض الإبداع، وندرة تعامل فرويد مع الذهان (الجنون) عاريا حاضرا.

[3]– انظر كتاب ("تبادل الأقنعة": دراسة فى سيكولوجية النقد) – المجلس الأعلى للثقافة – 2006

[4]– أنظر الكتاب الأول "الإيقاع الحيوى ونبض الإبداع"

[5] – Erikson E.H. (1972) Childhood and Society.

أن العلاقة بين حالتَىْ الجنون والإبداع تشير إلى بداية مشتركة، وموقف متحدٍّ ومضاد – في نفس الوقت – لغلبة "حالة العادية"

Penguin Books Ltd. Harmondsworth Middlesex England
[6]- أنظر الكتاب الأول "الإيقاع الحيوى ونبض الإبداع"
[7]- Hypernormality يستعمل تعبير فرط العادية Hyper-normalityمؤخرا للدلالة على درجة من المبالغة فى التشكل المعوق للحركة العامية والمانع للتفرد الذاتى بحيث تصبح العادية أقرب إلى الجمود الذى أحيانا بعض اضطرابات الشخصية.
[8]- Major unfolding Mega-systole

إرتباط كامل النص:
www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD240819.pdf

شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقيا بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي
http://www.arabpsynet.com/

المتجر الالكتروني
http://www.arabpsyfound.com

الكتاب السنوي 2019 لـ " شبكة العلوم النفسية العربية " (الاصدار السادس)

الشبكة تطفئ شمعتها الثامنة عشر وتدخل عامها التاسع عشر من التأسيس

18 عاما من الكدح... 61 عاما من التواصل "

(التأسيس: 2000/01/01 - على الويب: 2003/06/13)

http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf

"نحو لياقة نفسانية أفضل لحياة طيّبة"

الصفحة العلمية للدكتور جمال التركي

تسجيل الاشتراك
www.facebook.com/turky.PsyFitness

مؤسسة العلوم النفسية العربية

جائزة " قتيبة شلبي " لشبكة العلوم النفسية العربية للعام 2019

تتشرف شبكة العلوم النفسية العربية بإطلاق اسم:

" البروفيسور قتيبة شلبي "

(الطب النفساني، العراق / أمريكا)

على جائزتها للعام 2019 المخصصة للاعمال العلمية في الطب النفساني

تقديرا لمسيرته العلمية المميزة

واعترافا لما قدمه من خدمات جليلة للطب النفساني الشرعي على المستوى العالمي

دعوة لتقديم الترشحات للجائزة

الترشح للجائزة من بداية من 01 جانفي 2019 الى 30 نوفمبر 2019

شروط الترشح
www.arabpsynet.com/Prizes/Prize2019/APNprize2019.pdf

ارتباطات ذات صلة

دليل جائزة شبكة العلوم النفسية على المتجر الالكتروني

http://www.arabpsyfound.com/arabpsynet.php?p=2

دليل جائزة شبكة العلوم النفسية على ا الفايس بوك
https://www.facebook.com/Arabpsynet-Award-289735004761329/?ref=bookmarks